# التسلسل العام للدروس (٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:**

**قال المؤلف – رحمه الله –: (بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ).**

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: **{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}** [يونس: ١٠٦].

وَقَوْلُهُ: **{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}** [يونس: ١٠٧].

وَقَوْلُهُ: **{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}** [العنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ }** [الأحقاف: ٥، ٦].

وَقَوْلُهُ: **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}** [النمل: ٦٢].

**قوله:** «**بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ**»: "**من**" تبعيضية أي بعض من الشرك؛ لأن الشرك أنواع، ومن أنواع الشرك: ما يكون في الدعاء.

**قوله:** «**بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ**»: الاستغاثة هي نوع من الدعاء ولكنها مقيدة بحال الشدائد.

**قوله:** «**أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ**»: هذا من عطف العام على الخاص؛ لأن الاستغاثة نوع من أنواع الدعاء.

**قوله:** «**بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ**»: أي الأكبر.

**قوله:** «**أَنَّ يَسْتَغِيثُ بِغَيْرِ اَللَّهِ**»: سواء كان هذا المستغاث أي الذي استغاث به الإنسان من الغائبين أو الأموات أو الأصنام، أو الأوثان فإنا نقول: أن الحكم سواء، وأنه يكون من قبيل الشرك بالله عز وجل.

**ما حكم الدعاء أو حكم الاستغاثة؟**

الجواب: **الاستغاثة تأتي على أنواع:**

**النوع الأول:** أن يستغيث بالأموات أو الغائبين فهذا كله شرك أكبر مخرج من الملة، فكل من استغاث بالغائبين أو دعا الأموات فإنه يكون من قبيل الشرك الأكبر المخرج من الملة.

**النوع الثاني:** أن يستغيث أو يدعو الأحياء، وهذا أيضًا نقول: أنه على أقسام:

**القسم الأول:** أن يدعو الحي وهو حي حاضر قادر، فإن هذا جائز.

**القسم الثاني**: إن كانت هذه الاستغاثة أو الدعاء للحي ولكن هذا الحي من الغائبين، أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، فإنا نقول: أن الحكم أنه يكون من قبيل الشرك الأكبر المخرج من الملة.

**وعلى ذلك نقول**: **أن دعاء غير الله يأتي على أنواع**:

**النوع الأول**: يكون شركًا أكبر، **وله صور**:

**منها**: أن يستغيث أو يدعو الأموات أو الغائبين، أو يدعو الأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يكون هذا الدعاء من الأمور الخفية التي هي من خصائص الله عز وجل كمغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، وشفاء المرضى وغير ذلك، فإنا نقول: أن هذا كفر بالله عز وجل.

**النوع الثاني**: أن يكون من قبيل الشرك الأصغر، كمن يدعو الله بجاه فلان، أو يدعو الله عند قبر فلان، فهو يعتقد أن ذلك المكان معظم فيدعو الله في هذا المكان، فيخصه بالدعاء، فإنا نقول: أن هذا من قبيل الشرك الأصغر.

**النوع الثالث**: هو أن يدعو الحي الحاضر القادر، فإن هذا يعد من الأمور الجائزة.

وعلى ذلك نقول: أن دعاء غير الله على ثلاثة أنواع: شرك أكبر وله صور، وشرك أصغر، وجائز، **وهذا الجائز أيضًا له صور**:

منها: ما يكون مشروع كمن يسأل غيره في مسائل الشرع، أو من الأمور الجائزة كمن يسأل حق من حقوقه، أو من الأمور المحرمة كمن يسأل مالًا لطلب التكثر فإنا نقول: أن هذا يعد من الأمور المحرمة.

والمصنف – رحمه الله – قصد بهذا الباب القسم الأول – وهو الشرك الأكبر – أن يصرف الإنسان الدعاء لغير الله عز وجل أو يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، واستدل المصنف – رحمه الله – بجملة من الأدلة التي تبين أن صرف الدعاء لغير الله عز وجل كفر أكبر مخرج من الملة.

واستدل المصنف – رحمه الله – على ذلك بقوله تعالى: **{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}** [يونس: ١٠٦].

**قوله: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ }**: سواء كان هذا الدعاء دعاء للأموات أو الغائبين بانفراد، كأن يقول: يا فلان. من الأموات اغفر لي، ارحمني، اشفني، أو أنه يدعو مع الله آلهة أخرى، فإنا نقول: أن هذا كله من قبيل الشرك الأكبر.

ومثل ذلك أيضًا على الصحيح من جعل بينه وبين الله وسائط فيقول: يا فلان اشفع لي عند الله أن يدخلني الجنة، فإنا نقول: أن هذا على الصحيح كفر أكبر مخرج من الملة.

**قوله: { مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ }**: لأن المدعو من دون الله معلوم أنه لا ينفع ولا يضر، فمن اعتقد في ميت أنه ينفع ويضر من دون الله عز وجل فإن هذا الاعتقاد أي الاعتقاد المجرد يعد من جملة الشرك بالله عز وجل لأن الضر والنفع إنما هو بيد الله عز وجل.

**قوله: { فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}**، وأشد الظلم هو الشرك بالله عز وجل كما سبق.

ثم استدل المصنف – رحمه الله – بقوله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}[العنكبوت: ١٧].

**قوله: { عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}: { عِنْدَ}**: ظرف، وتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الرزق، فيجب على الإنسان إذا أراد طلب الرزق أن يتوجه إلى الله لا يتوجه إلى أحد من المخلوقين، ولكن ما المراد بالرزق هنا؟ هل هو الرزق الحسي المادي كالمال ونحوه أو أن ذلك أعم؟

الجواب: نقول: أن ذلك أعم، فرزق الله عز وجل قد يكون حسي: كالمال والطعام، والمأكل والمشرب، وقد يكون معنوي: كالإيمان والصبر، والتقوى وغير ذلك.

**ثم قال: وَقَوْلُهُ تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}**: هنا استفهام.

**قوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ }**: الجزاء أو الجواب نقول: لا أضل، أي بمعنى أن أضل عمل هو أن يدعو الإنسان غير الله عز وجل، لماذا؟

الجواب: قال الله عز وجل مبينًا قبح هذا الفعل: **{ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}**: أي أن هذه حال الأصنام، الأصنام أو الأوثان التي تدعى من دون الله عز وجل لها صفات:

**الصفة الأولى: { مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}.**

**الصفة الثانية: { وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ }.**

**الصفة الثالثة: { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً }.**

**الصفة الرابعة: { وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ }.**

هذا كله يدل على أن دعاء غير الله عز وجل يعد من جملة الشرك بالله عز وجل، وأراد المصنف – رحمه الله – بمجيئه لهذه الآية أن يبين حال المدعوين من دون الله عز وجل، وأن من يدعى من دون الله كما ذكر الله عز وجل لا يستجيب؛ لأنه لا يسمع، ولو سمع فإنه لا يستطيع أيضًا أن يستجيب وينصر لأنه لا يملك النفع والضر.

**ثم قال: وَقَوْلُهُ تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }**: الضر هو الحاجة، فالجواب: إنما هو الله سبحانه وتعالى، وهذا يقر به جميع الناس، فهم يعتقدون أن الذي يجيب المضطر هو الله، فإذا كان يجيب المضطر فمن باب أولى أنه يجيب أيضًا غير المضطر، لذلك الناس قد يدعون غير الله في الرخاء، ولكن في حال الشدة يعرفون أن الله عز وجل هو الذي يعطي، وينقذ، ويرزق، كما قال الله عز وجل عن كفار قريش: **{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}**[العنكبوت: ٦٥]، لماذا؟

الجواب: لأنهم يعرفون أن الله عز وجل بيده كل شيء، فإذا كان الله عز وجل هو الذي يستجيب للمضطر فكذلك من باب أولى أنه هو الذي يدعى في حال غير الضر.

📖قال المؤلف – رحمه الله –: وَرَوَى اَلطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي اَلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا اَلْمُنَافِقِ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ».

**قوله:** « **مُنَافِقٌ يُؤْذِي اَلْمُؤْمِنِينَ** »: أي أنه يتعدى بلسانه، وقد يكون يتعدى بفعله على المؤمنين بالسب، أو الشتم، أو التحريش بينهم أو غير ذلك من الأفعال.

**قوله:** «**فَقَالَ بَعْضُهُمْ**»: أي قال بعضهم لبعض.

**قوله:** «**قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ**»: الاستغاثة هنا هي بمعنى الاستعانة، أي نستعين برسول ا لله ﷺ من شر هذا المنافق، إما أن يقيم عليه الحد وذلك بالقتل أو غير من الأمور، «**فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ**».

**قول النبي ﷺ:** «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي**»: دليل على أن الاستغاثة لله عز وجل خاصة به سبحانه وتعالى، ولكن يشكل على ذلك أن صاحب موسى لما رأى موسى ماذا طلب منه؟ **{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ}** [القصص: ١٥]، والنبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ**» فما هو الجمع بينهما؟

نقول: هذا بناء على صحة الحديث، فإذا صححنا الحديث فإن الجمع بينهما سهل ويسر.

**أولًا**: أن يقال: أن هذا من باب التأدب في الألفاظ، وحماية التوحيد، فأراد النبي ﷺ أن يبين أن لفظ الاستغاثة لا يكون إلا لله عز وجل، فنهى النبي ﷺ عن اللفظ ولم ينهَ عن حقيقة القول، وهذا فيه جانب التأدب في الألفاظ.

أو يقال: فإنه لا يستغاث بي في هذا الوقت أو في هذه الحال من هؤلاء المنافقين؛ لأن النبي ﷺ امتنع عن قتلهم حتى لا يقال: بأن محمد يقتل أصحابه، فإنه في هذا الوقت لا يستغاث به من هؤلاء، وهذا كله بناء على صحة الحديث، وإن قلنا: بأن الحديث ضعيف كفينا هذا التأويل.

📖قال المؤلف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى

**{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا}** [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، اَلْآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: **{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}** [فاطر: ١٣] اَلْآيَةَ.

**قوله: بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ }**: أراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب والأبواب القادمة بابين أو ثلاثة بيان حال المدعوين من دون الله عز وجل وبيان أن الناس لا ينفعون أنفسهم ولا يدفعون عن أنفسهم ضرًا فضلًا عن غيرهم، وهذا الباب يصح أن يعنون بباب بيان حال المدعوين من دون الله عز وجل.

**قوله: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا }**: بيان لحال المدعوين من دون الله سواء كانوا هؤلاء من الملائكة أو الجن، أو الأوثان، أو الأولياء، حتى الأنبياء فإن هؤلاء المدعوين من دون الله عز وجل لا يخلقون شيئًا. أي شيء، لماذا؟

الجواب: لأن الخلق إنما هو من خصائص الله عز وجل.

**قوله: { وَهُمْ يُخْلَقُونَ }**: أي بمعنى أنهم خلق من خلق الله عز وجل، ولذلك الواجب: أن الإنسان في حال الدعاء أنه يدعو القوي، يدعو الخالق، يدعو من بيده كل شيء، لا يذهب إلى الضعيف إلى المخلوق، إلى الذي لا يستطيع نصر نفسه، فقال: **{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا}**، الآية.

ثم أيضًا بين في الآية التي بعدها: **قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}**: القطمير: هو القشرة التي تكون على النواة.

**قوله: {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}**: نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، فالذين يدعون من دون الله لا يملكون من قطمير أي لا يملكون قشر النواة، فضلًا عمَّا هو أكبر منها كشفاء الأمراض، ودخول الجنة، ومغفرة الذنوب، والرزق، وغير ذلك فهذا من باب أولى أنهم لا يملكون ذلك، وهذا فيه بيان حال المدعوين من دون الله، أي أن هذه الأصنام لا تملك شيئًا، وهؤلاء الذين يدعون من دون الله لا يملكون شيئًا، فمن باب العقل أن الإنسان إذا أراد أن يدعو إنما يدعو من بيده كل شيء، يدعو القوي، يدعو المدبر، يدعو من بيده النفع والضر، أما أن تذهب إلى شخص سواء كان من الغائبين أو من الميتين أو من الجمادات الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا يملكون لغيرهم نفعًا ولا ضرًا فإن من توجه إليهم فإنما هذا هو نقص في عقل من توجه إليهم؛ لأنه ترك القوي، الحي، السميع وذهب إلى الضعيف الميت الذي لا يملك شيئًا.

**📖قال المؤلف – رحمه الله –: وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟ فَنَزَلَتْ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.**

**قوله: «وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ»**: الرباعية: هي ما بعد الثنية، فقال النبي ﷺ: **كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟ فَنَزَلَتْ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.**

**قوله: « كَيْفَ يُفْلِحُ »**: هذا استفهام استنكاري، أي أن هؤلاء كيف يفلحوا مع أنهم آذوا النبي ﷺ، فنزلت **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}**[آل عمران: ١٢٨]. ، وهذا فيه بيان خطر اللسان، وأن الإنسان لا يتعدى على حقوق الله عز وجل، لأن النفع والضر والهداية والفلاح بيد الله عز وجل، فالله عز وجل عاتب النبي ﷺ أنه حينما قال عن قومه: « **كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟** »: انظر إلى هذه الحال، رسول الله، وهو النبي، وخاتم الأنبياء، وهو في مقام الجهاد في سبيل الله عز وجل ومع ذلك أوذي، فشج، وكسرت رباعيته، فاستنكر النبي ﷺ على هؤلاء، واستكثر عليهم الفلاح، فقال: « **كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟** » فعاتبه الله عز وجل بقوله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}**[آل عمران: ١٢٨]، إذن الأمر لمن؟ الجواب: لله عز وجل، فالخير والنفع، والضر إنما هو بيد الله عز وجل، وهذا فيه ضعف المخلوق، وأنه إذا كان النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فمن باب أولى من يُدعى من دون الله عز وجل كالأصنام، والأولياء، والصالحين، فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

**ولذلك نقول**: أن الإنسان ينبغي له أن يحكم عقله في هذه الأمور، إذا أراد الإنسان أن يدعو فلا يدعو الضعيف، الميت، الغائب أو الذي ليس بيده شيء، وإنما يدعو الحي القيوم، السميع، الذي يدبر الأمور.

📖 قال المؤلف – رحمه الله –: وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ اَلرُّكُوعِ فِي اَلرَّكْعَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِنَ اَلْفَجْرِ: «اَللَّهُمَّ اِلْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ اَلْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اَللَّهُ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

قوله: « اَللَّهُمَّ اِلْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»: أي اللهم اطردهم من رحمتك.

قوله: «بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ اَلْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اَللَّهُ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}: هذا كله دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يحفظ لسانه، وأنه لا يدعو على أحد أن يطرد من رحمة الله؛ لأن الرحمة بيد الله عز وجل، فيرحم فلان ويعاقب ويعذب فلان، فذلك كله بيد الله عز وجل.

قال المؤلف – رحمه الله –: وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}: انظر إلى حال النبي، وفي هذه الحال يدعو عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله، فعاتبه الله عز وجل بقوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}[آل عمران: ١٢٨]، دليل على ماذا؟

الجواب: دليل على أن الإنسان في حال طلب الدعاء فإنه يطلب من الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، أما المخلوق الضعيف فإنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وهذا النبي ﷺ أكرم خلق الله، وأتقى عباد الله، وهو الرسول، وخاتم الأنبياء ومع ذلك لم يستطع دفع الضر عن نفسه؛ لأن كفار قريش شجوا النبي ﷺ وكسروا رباعيته، ومع ذلك طلب الدعاء، وهل استجاب الله عز وجل دعوته أن يطرد هؤلاء الثلاثة من رحمته أو أنه لم يستجب؟

الجواب: لم يستجب الله عز وجل للنبي ﷺ، وهذا دليل على أن الإنسان ينبغي له في حال الدعاء أن يطلب من الله، لا يطلب من أحد من المخلوقين، ولذلك هؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم.

📖قال المؤلف – رحمه الله –: وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا! «اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اَللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لَا أُغْنِ عَنكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا».

قوله: «وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ» وفي بعض النسخ «قام فينا» لكن التي في البخاري ليس فيها "فينا" لأن أبي هريرة لم يشهد تلك الموقعة وإنما أسلم بعد الهجرة، وهذا الحديث قبل الهجرة.

قوله: «قَامَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ»: وقريش هو النضر بن كنانة.

قوله: « –أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا – اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا»: أي لا أملك من الله شيئًا، أي في حال كفر الإنسان أو وجود المعاصي والذنوب فإني لا أملك شيئًا من دون الله عز وجل، لأن الله عز وجل بيده كل شيء.

**قوله:** « **اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ** » أي أنقذوا أنفسكم.

**قوله:** « **لَا أُغْنِي** »: أي لا أملك من الله شيئًا، وهي نكرة تعم كل شيء، وهذا هو الشاهد، إذا كان النبي ﷺ يقول عن نفسه: «**لا أملك شيئًا**» فمن باب أولى غيره ممن يُدعى من دون الله عز وجل أنه لا يملك شيئًا.

**ثم قال:** «**يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا**»: والعباس هذا بالنسبة للنبي هو عم النبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ لا يملك أولًا لنفسه شيئًا، ثم أيضًا لا يملك لأقاربه، ولا يملك لأعمامه، ولا يملك لعماته، ولا يملك لبناته شيئًا فمن باب أولى أنه لا يملك لأحد شيئًا، لذلك الواجب على العاقل أنه في حال الدعاء في حال طلب الخير أنه يتوجه إلى الله لا يتوجه إلى أحد من المخلوقين.

**ثم قال:** «**يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لَا أُغْنِي عَنكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئًا**»: كل ذلك يدل على أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا يملك لغيره شيئًا إلا ما ملكه الله عز وجل من الشفاعة، وأراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب أن يبين حال المدعوين من دون الله، فمن صرف الدعاء لغير الله عز وجل أيًا كان من الأنبياء أو الصالحين أو الأولياء، أو الأصنام، أو الجمادات من الأشجار أو الأحجار أو الأوثان فإنه لا يملك شيئًا، فإن هذه الدعوات إنما هي دعوات لا يستجاب لها ولا يسمعها أصحابها، فالواجب على الإنسان أن يصرف الدعاء للسميع المجيب.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** [سبأ: ٢٣].

نقول: هذا الباب كالباب السابق فيه بيان حال المدعوين من دون الله عز وجل، وأراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب أن يبين ويوضح ويأتي بالبراهين الدالة على أن أقرب الخلق إلى الله عز وجل وهم الملائكة، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا يعلمون شيئًا فمن باب أولى غيرهم ممن يدعى من دون الله عز وجل.

ومناسبة هذا الباب للذي قبله نقول: واضحة، حيث أن المصنف – رحمه الله – في الباب الذي قبله أراد أن يبين حال المدعوين على وجه العموم من الأصنام، وما عبد من دون الله عز وجل، وكذلك النبي ﷺ وهو أقرب الناس إلى الله عز وجل إيمانًا وأكملهم دينًا فلا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فجاء بهذا الباب ليبين أيضًا حال أقرب الناس مكانًا إلى الله عز وجل وهم الملائكة فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فإذا كان النبي ﷺ والملائكة لا يستطيعون نفع أنفسهم ولا غيرهم فمن باب أولى غيرهم ممن يدعى من دون الله عز وجل.

**قوله:** { **فُزِّعَ** }: أي زال الفزع عن قلوبهم، والفزع هو الخوف، أي حتى إذا زال الخوف عن قلوبهم، وبعد ذلك يتساءلون، { **قَالُوا** }أي قال بعضهم لبعض.

**قوله:** {**مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ**}: أي أن بعضهم يقول لبعض: بأن الله تكلم بالحق.

**قوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}**دليل على ماذا؟

الجواب: دليل على أن الملائكة إذا سمعت كلام الله عز وجل حصل لها الخوف الشديد، أو الرعدة الشديدة، وحصل بعد ذلك الصعق، فإنهم يصعقون إذا سمعوا كلام الله عز وجل، كل ذلك يدل على أنهم مخلوقين، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وكذلك لا يعلمون شيئًا.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللَّهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنَ اَلسَّمَاءِ».**

ثم استدل المصنف – رحمه الله – بما يبين ويوضح ويفسر هذه الآية بحديث البخاري.

**قوله: «وَفِي اَلصَّحِيحِ»**: أي في صحيح البخاري.

**قوله: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا قَضَى اَللَّهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ»**: القضاء الله على نوعين: قضاء شرعي، وقضاء كوني.

**فالقضاء الشرعي**: هو الذي يقضي وهو محبوب إليه.

**والقضاء الكوني**: هو القضاء القدري الذي لا يشترط فيه المحبة.

**قوله: « خَضْعَانًا لِقَوْلِهِ»**: خضعانًا: أي خاضعين، خائفين، مأخوذ من الخضوع، وهو الخوف، والخشية، أو **«خَضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ».**

**قوله: « كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ »**: السلسلة معروفة، والصفوان هو الحجر الأملس.

**قوله: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ»**: أي يصلهم ذلك الصوت المسموع.

**قوله: « كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ »**، ما المراد بالتشبيه هنا؟

نقول: **اختلف العلماء:**

– فمنهم من قال: المراد به هنا تشبيه الصوت بالصوت، ولكن يشكل على ذلك قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**[الشورى: ١١].

- ومنهم من قال: المراد هنا ضرب الملائكة بأجنحتها، فتشبه، فالمشبه هنا صوت ضرب الملائكة بأجنحتها وليس هو كلام الله عز وجل، ولكن الأظهر أننا نقول: أن المراد بذلك كلام الله عز وجل، ولكن هنا التشبيه إنما هو تشبيه **السماء بالسماع** لا المسموع بالمسموع.

**قوله:** « **كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ** »: هنا التشبيه نقول: تشبيه السماع بالسماع لا المسموع بالمسموع.

**قوله:** «**يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ**»: النفوذ: أي بمعنى الدخول، أي يدخلهم ذلك الصوت.

**قوله:** **{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ}**: أي زال الفزع عن قلوبهم.

**قوله:** **{قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ }**: أي يقول بعضهم لبعض.

**قوله:** **{ قَالُوا الْحَقَّ }**: أي قال بعضهم لبعض: بأن الله قال الحق **{ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}**.

**قوله:** «**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ**»: هذا فيه بيان أن الشياطين تسترق السمع، وهذه المسألة تكلم عنها أهل التفسير بما فيه الكفاية، واختلف العلماء هل الجن تسترق السمع أو لا تسترق السمع؟

الجواب: على أقوال، ومجمل هذه الأقوال:

**القول الأول**: أن من العلماء من قال: بأنهم كانوا يستمعون، وبعد البعثة امتنعوا عن الاستماع، ومنعوا، فلم يستطيعوا السماع **{إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}**[الشعراء: ٢١٢].

**القول الثاني**: قالوا: بأنهم قبل البعثة يستمعون الكثير، وبعد البعثة شدد عليهم ولا يزالوا يستمعون، ولكنهم بعد التشديد والتضييق عليهم، فهم يستمعون ولكن هذا الاستماع أقل من الاستماع قبل البعثة.

**القول الثالث**: قالوا: بأنهم قبل البعثة يستمعون، وبعد البعثة لا يستمعون، وبعد انقطاع الوحي رجعوا يستمعون ولكن ليس استماعهم كالأول.

**قوله:** « **وَصَفَهُ سُفْيَانُ** »: أي ابن عيينة.

**قوله:** « **بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا** »: هكذا، ذكر اليد.

**قوله:** « **فَحَرَّفَهَا** »: أي حرف يده.

**قوله:** «**فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»: أي فرق بين أصابعه، فكانوا على هذه الصفة، أي أنهم يسترقون السمع على هذه الصفة، يركب بعضهم فوق بعض إلى السماء.

**قوله:** «**فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ**»: أي أن الشيطان يسمع الكلمة من السماء، أي كلمة يسمع الشيطان؟ هل يسمع كل كلمة؟

الجواب: نقول: لا، **كلام الله عز وجل على نوعين:**

**النوع الأول**: كلام متردد في السماء تسمعه الملائكة من الله عز وجل أو يتخابر الملائكة، بأن يخبر جبريل الملائكة بأن الله قال كذا وكذا، كقول النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا نادى يا جبريل إني أحب فلان فأحبه، ثم بعد ذلك ينادي**

**جبريل بأن الله يحب فلان**» هذا الكلام يتردد، وجبريل يبلغ الملائكة، ومثل ذلك أيضًا فيما يقضيه الله ويقدره قد يُخبر به فيتردد، هذا الذي يكون في السماء قد يسترقه الجن.

**النوع الثاني**: الكلام الخاص كالقرآن فإنا نقول: أنه وحي خاص من الله للنبي ﷺ بواسطة جبريل، فهذا نقول: أنه لا يمكن لأحد أن يستمع.

لذلك قوله: **{ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}**: يحتمل أن المراد بذلك:

١. **{قَالُوا الْحَقَّ}**: أي أنهم يقولون: بأن الله قال الحق، ولكن لم يرددوا هذا الكلام، أو لم يُخبَروا بماذا قال.

٢. **{قَالُوا الْحَقَّ}**: أي أن الله قال كذا وكذا، وكلامه حق.

وعلى ذلك نقول: أن الكلام لله عز وجل يأتي على نوعين:

**النوع الأول**: كلام وحي خاص من الله عز وجل إلى جبريل، ومن جبريل إلى النبي ﷺ وهذا لا يمكن لأحد أن يطلع عليه أو يسترقه، فهو خاص بالله عز وجل إلى جبريل إلى النبي ﷺ، لذلك يسمى جبريل بالأمين؛ لأنه لا يطلع أحد قبل النبي ﷺعلى هذا الأمر.

**النوع الثاني**: الكلام الذي يتردد بين أهل السماء، فهذا هو الذي يسترقه الجن والشيطان.

**قوله**: «**ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ**»: يحتمل أن الشك من الراوي، ويحتمل أن هذا من كلام النبي ﷺ، أي أن الشيطان يأتي إلى الساحر أو يأتي إلى الكاهن، وسيأتي – إن شاء الله – الكلام على الفرق بينهما.

**قوله**: «**فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا**»: الشهاب هو النجم الذي يرمى به.

**قوله**: «**وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ – أو مائة كذبة**»: يصح هذا وهذا.

**قوله**: «**فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ**»: أي من أجل تلك الكلمة التي سمعت من السماء يصدق بجميع ما يقول من الألفاظ.

📖**قال المؤلف – رحمه الله –: وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اَللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ اَلسَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ – أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ – خَوْفًا مِنَ اَللَّهِ ﷻ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَاوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اَللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ اَلْحَقَّ وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ ﷻ».**

**قوله**: «**وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: إِذَا أَرَادَ اَللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ**»: أي بالشأن.

**قوله**: «**تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ**»: أي أن الله عز وجل يتكلم، وكلامه سبحانه وتعالى وحي.

**قوله:** «**أَخَذَتِ اَلسَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ – أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ**»: أي خوف شديد، وذلك «**خَوْفًا مِنَ اَللَّهِ ﷻ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَاوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا**»: أي أنهم في حال السماع يحصل لهم أولًا الصعق، ثم بعد ذلك الخرور لله سجدًا.

**قوله:** «**فَيَكُونُ أَوَّلُ**» و «**فيكون أولَ**»: يصح هذا وهذا.

**قوله:** «**فيَكُونُ أولَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اَللَّهُ مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبريل: قَالَ اَلْحَقَّ وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ**»: أي بمعنى أنه لا يخبرهم بذلك لأن هذا وحي خاص منه أي من الله إلى جبريل، ومن جبريل إلى النبي أو إلى الأنبياء «**فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ ﷻ**».

وهذا الأثر رواه ابن جرير، وفيه كلام من حيث الصحة والضعف، والأقرب أنه أثر ضعيف.

وأراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب أن يبين أن الملائكة وهم أقرب الخلق إلى الله عز وجل ومع ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعًا وضرًا، فمن باب أولى غيرهم أيضًا أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

**والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.**